لا تبقي الجغرافيا محايدة[٤]. وعن معالجة المشكلة الجغرافية، أشار د. هارفي الى انه عند اتخاذ القرار بالبحث في مشكلة معيّنة، يجب التقيّد بكيفية ابراز المشكلة واختيار حجم الدراسة؛ وكذلك يجب التقيّد بكيفية اختيار اساليب التحليل[٥].

هنالك أهمية كبرى بأن يقوّم الباحث كتاباته بنفسه ويضعها تحت مجهر اللاموضوعية. كذلك يجب ان يقوّم مدى دوره، وموضع عمله، بالنسبة الى تكوين فكرة مسبقة، أو فرض أفكاره على القارىء. فالدراسات الخاصة بالصراع الفلسطيني ـ الاسرائيلي أفضل مثال، من حيث تعبيرها عن موقع كاتبها بالنسبة الى قضية الصراع، حيث ان ما يمكن ان يسمّى موضوعياً عند طرف، ربما يكون غير موضوعي عند الطرف الآخر[٦].

لقد قمنا نحن في تقويم دراساتنا عن بدو الجليل، فأشرنا الى احتمال وقوع اللاموضوعية في تحليلنا للاحداث، وقلنا ما يلي: «وربّما كان في التصاقه العميق بالشؤون البدوية [أي التصاق المؤلف]، فكراً وجسداً، ما يقود الى شيء من اللاموضوعية. ولكن هذه اللاموضوعية، على كل حال، تجد ما يعوّض عنها في كشف حقائق معيّنة قد يسقطها الكاتب غير البدوي، أو يتجاهلها عامداً متعمّداً، كما هو الحال مع بعض الكتاب الاسرائيليين»[٧].

وعند تقويمنا للدراسات الجغرافية الاسرائيلية الخاصة بالجغرافيا البشرية لفلسطين، بشكل عام، والجغرافيا العربية لفلسطين، بشكل خاص، فاننا نجد أمثلة ناصعة من النظرة اللاموضوعية في وصف الملامح البشرية والحضارية للبلاد؛ نجمت هذه اللاموضوعية، بشكل مباشر، من سيطرة الاحلام الصهيونية على دماغ الكاتب الاسرائيلي. فهو وصف وحلّل التغييرات والاحداث في الماضي كما أرادها ان تكون، خدمة لفكرة بناء وانشاء وطن لليهود في فلسطين. كذلك، فهو حلّل وأعطى «مصداقية» للتخطيطات الاسرائيلية، ونظر الى الجغرافيا المكانية في الحاضر كما أرادها ان تكون، وكما رسمها منفّذو القرارات من السياسيين.

تعتبر مقالة اس. ووترمان حول الايديولوجيا والاحداث في الملامح البشرية الاسرائيلية مقالة فريدة ووحيدة، كونها كتبت من قبل احد الجغرافيين الاسرائيليين، والذي يصف فيها الكتابات الخاصة بتغيير الملامح والبيئة، كذلك الخاصة بباقي نواحي المجتمع، بأنها بنيت على أساطير غير واقعية. والاسطورة، كما هو معروف، عبارة عن تخيّل يسيطر عليه التحيّز والمصلحة الشخصية[٨].

تكوين جغرافيا اسرائيلية بديلة

تحوّلت الجغرافيا الاسرائيلية الى منهج تدريسي جامعي في سنوات الخمسين، في الجامعة العبرية، بمبادرة ثلاثة أساتذة يهود حاملي شهادة الدكتوراه من الجامعات الاوروبية (عميران، شطنر، وكارمون). وقد انعكس الكثير من اهتمامات واتجاهات فكر أولئك الجغرافيين الثلاثة في غالبية البحوث الاسرائيلية اللاحقة، والتي كتب غالبيتها تلاميذهم، أو تلاميذ تلاميذهم. فحتى العام ١٩٨٥، بلغ عدد حاملي شهادة الدكتوراه في الجغرافيا البشرية، في اسرائيل، ٧٠ شخصاً، ٧٠ بالمئة منهم من خريجي الجامعات الاسرائيلية، للقب الاول والثاني؛ وان ٣٣ جغرافياً منهم يشكّلون ٤٧,٢ بالمئة من حملة شهادة الدكتوراه من الجامعات الاسرائيلية، ومن بينهم ٣٢ (أي من بين الـ ٣٣) من خريجي الجامعة العبرية[٩]. من هنا يظهر تمركز الفكر والبحث الجغرافي الاسرائيلي في داخل مؤسسة واحدة. ولهذا التمركز أثر كبير في اختيار مواضيع البحوث وأساليب البحث للدراسات الاسرائيلية،